٥

ظاهرة تفصيل المعاني بعد استيفائها في القرآن الكريم دراسة أسلوبية
آية بني إسرائيل رقم (٧٤) من سورة البقرة (أنموذجا)

محمد الورد علي سعيد الورد
معيد بقسم اللغة العربية/ كلية التربية/ باجل.

ملخص البحث

قامت هذه الدراسة على محاولة الكشف عن إمكانيات قراءة معاصرة للبنى الأسلوبية التركيبية واللفظية والموسيقية لآية رقم (٧٤) من سورة البقرة التي تحدثت عن بني إسرائيل؛ لبيان الدلالة منها والوقوف على بيان القرآن المعجز فيها.

وقد خلصت إلى أن التعبير القرآني كان دقيقا جدا في وصف قلوب بني إسرائيل، وأنه وظف كل إمكانات التعبير؛ لتحقيق المعنى المراد في الظاهرة، فوظف الصورة البيانية، والمفردة في اختياره اللغوي، والصوت اللغوي، وكل هذا التوظيف الفني والجمالي لتحقيق مقاصده ودلالته، ولإيصال المعني للمتلقي وتأكيده وتقريبه إلى ذهنه، ولإحداث أثر فيه ببيانه.

أولا: المقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين الذي أرسله الله رحمةً للعالمين، وأنزل عليه القرآنَ الكريم بياناً لكلَّ شيءٍ، " وهدىً ورحمةً للمحسنين"

وبعد:

لقد نال الأسلوب القرآني اهتماما كبيرا، وحظي بمكانة سامية في الدراسات والبحوث عرضا، وتحليلا، ومناقشة وتعليلا؛ كونه النص المعجز، والمحكم الذي تحدى به الله (سبحانه وتعالى) أرباب الفصاحة والبيان.

ومع كثرةِ هذه الدراسات والبحوث، وكثرة الموضوعات التي تطرق لها العلماءُ والباحثون بالدراسة والتحليل، تبقَّى للباحثين في أساليب القرآن، ومستويات أدائه مجالات ٌواسعةٌ، ومتجددةٌ من الموضوعات التي يجب أن تُدرس.

ومن ثَّم كان اختيارُ موضوع بحثي الذي عنونته: بـ (ظاهرة تفصيل المعاني بعد استيفائها في القرآن الكريم دراسة أسلوبية آية بني إسرائيل رقم (٧٤) من سورة البقرة "أنموذجا")، وهو موضوع

يدرس الآية القرآنية التي استوفت معناها ثم فصل فيه دراسة أسلوبية تقوم على استكشاف، وبيان بلاغة هذا الأسلوب القرآني، وما فيه من إعجاز بديع، لاستكشاف جماله، وتبين أسراره وخصائصَه الأسلوبية.

وتبرز أهميةُ البحثِ في أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها في الآية القرآنية دراسةً أسلوبية، ويوضح وجوه الإعجاز فيها، و يدرسها دراسةً على مستوى الصوت، ودلالة اللفظ، والتركيب في سياقها التي وردت فيه.

كما ينال أهميته من المقام العالي والرفيع للموضوع القرآني الذي يدرسه، بالإضافة إلى أنَّها أولُ دراسةٍ تتناول دراسة ظاهرة تفصيل المعاني بعد استيفائها في القرآن الكريم دراسة أسلوبية، بهذا المنهج المفصل والمبين.

ثانيا: أهداف البحث

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

أولاً- الكشف عن العناصر التي تكون الظاهرة القرآنية في الآية لبيان شدة قسوة قلوبهم و البحث في إمكانات هذه الظاهرة البيانية، والكشف عن علاقة أدائها اللغوي ببيانها المعنوي.

ثانيا- دراسة المستوى التركيبي في الآية القرآنية وعلاقة الجمل بالسياقات التي وردت فيها.

ثالثا. دراسة المستوى اللفظي في الآية القرآنية من خلال علاقة الألفاظ بسياقاتها التي وردت فيها.

رابعا- فتح آفاق جديدةٍ للدارسين تتناول جوانب أخرى في إعجاز القرآن الكريم؛ لتوظيفَها في الدعوة إلى الله.

خامسا- رفد المكتبة القرآنية بهذه الدراسة العلمية، وتقديمها للباحثين في البيان القرآني وإعجازه في هذا الحقل المعرفي القرآني.

ثالثا. منهج البحث

سيعمد البحثُ إلى دراسة الظاهرة وتحليلها في القرآن الكريم، وحصرها على النحو الآتي:

أولاً. بيان الآية التي وردت فيها هذه الظاهرة في القرآن الكريم.

ثانياً: جمع المادة العلمية من مصادرها العلمية، الاستفادة من لطائف العلماء، والمفسرين، والبلاغيين البلاغية في توجيهها.

ثالثا: تصنيف المادة العلمية لهذه الظاهرة إلى ثلاثة مستويات تركيبية، ولفظية، وموسيقية وتحليلها في ضوء السياق الذي وردت فيه، والإفادة من معطيات البحث الأسلوبي الحديث، وما تأصل في بلاغتنا العربية

رابعا: الدراسات السابقة

بعد البحث والتحري لم أجد في الدراسات والبحوث دراسة بيانية شاملة قد درست هذا على نحو مستقل، وإنما وجدت مقالات مجتزأة، وكتابات مبثوثة في الكتب، وقد اطلعت على رسالة ماجستير قام بها الباحث:(هاني خضر مصطفى) بعنوان: "أسلوب التفصيل بعد الإجمال وأغراضه في القرآن الكريم"، إلا أن دراسته لم تهتم بالتفصيل بعد الإجمال في السياق الواحد، وإنما ربط بين بعض الآيات المجملة والآيات المفصلة لها حسب ترتيب النزول والأسلوب والسياق والمضمون.

كما أطلعت على رسالة دكتوراه من قسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة الكوفة للباحث: (سيروان عبد الزهرة الجنابي) بعنوان: (الإجمال والتفصيل في التعبير القرآني: دراسة في الدلالة القرآنية) إلا أنها اهتمت بالدلالة الأصولية، وبيان مقصودها عند اللغويين، والبلاغيين، والمفسرين، والأصوليين، وبيان أوجه اتفاقها واختلافها معهم، كما أنه اهتم بالجانب النظري في دراسته في دراسة للدلالة، وبيان مقصودها، ولم يكن له علاقة بالمنهج الأسلوبي وأصوله البلاغية.

وأما الدراسات الأسلوبية في القرآن الكريم، فهي كثيرة ومتعددة، وتعد هذه الدراسة سابقة في موضوعها؛ كونها تهتم بدراسة الظاهرة في سياقها الواحد، وتكشف مآلاتها، وتهتم بها في بيان إعجازها في مستويات عدة(التركيبي، واللفظي، والصوتي).

خامسا: محتويات البحث:

تم تقسيم الدراسة على النحو الآتي:

أولا: المقدمة

ثانيا: المبحث الأول: المدخل النظري(التمهيد)، ويتكون من:

أولا: التعريف بمصطلحات البحث

ثانيا: علاقة موضوع البحث بالبلاغة العربية

المبحث الثاني: موضوع البحث ويتكون من الآتي:

أولا: الفكرة الموجهة للظاهرة

ثانيا: عناصر تشكيل الظاهرة

ثالثا: تحليل الظاهرة في مستوياتها الثلاثة(التركيبي، واللفظي، والصوتي).

خامسا: خاتمة البحث، ومصادره ومراجعه.

المبحث الأول: المدخل النظري(التمهيد):

المطلب الأول: مصطلحات البحث:

أولا: الاستيفاء:

مصدر من الفعل استوفى، والمقصود به اكتمال المعنى وتمامه، وإعطاؤه ما يستحقه، ومنه قوله تعالى "وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢" (المطففين:١)، أي: يأخذون حقهم مكتملا دون نقصان؛ فالمقصود به اكتمال المعنى في الآية القرآنية بلفظه المذكور.

وفي لسان العرب: "وفى الشيء: أتمه ولم ينقص منه شيئا، ومنه أوفيت العهد، ومنه قوله تعالى: " أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ " (الشعراء:١٨١)، وقوله: "يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ" (الإنسان:٧)، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنكم وفيتم سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها(١)، وتوفيت المال منه، واستوفيته إذا أخذته كله، وتوفيت عدد القوم إذا عددتهم كلهم(٢)، وفي المعجم الوسيط: استوفى فلان حقه أخذه وافيا، ويقال: استوفى منه ما لم يبق عليه شيئا"(٣).

يقول أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين ـ وهو يتكلم عن استعمال الناس الطول والعرض فيما ليس له: وكان أبو تمام قد استوفى في المعنى في قوله: "تطول الدهر"(٤)، أي: أتى على تمام المعنى، الاستيفاء: طلب الوفاء بالأمر أي: أخذ الحق كاملا، ومنه استيفاء العضو بالمسح، واستيفاء الأركان، واستيفاء المقومات الأساسية(٥).

ويقصد به في البحث أن اللفظ القرآني استوفى معناه واكتمل، لكنه لم يقف عند حدود اللفظ ومعناه المكتمل، وإنما فصل فيه بطرق التفصيل المتعددة لآلات يبينها البحث، ويكشف عن دلالاتها.

ثانيا: التفصيل:

التفصيل: مصدر للفعل فصل، ومن معانيه الشرح، والتجزئة، والتبيين(٦)، ومنه قوله تعالى "بِكِتَابٖ فَصَّلۡنَاهُ "(الأعراف: ٥٢)، وفصل الكلام أي: أتى به مفصلا بدقائقه، وتفاصيل الشيء:

---

(١) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه،ج٥، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٨٧م، ص٣٤٩، رقم الحديث(٤٢٨٨).

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار(صادر)، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، (وفى).

(٣) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط١، د. ت، (وفى).

(٤) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، الصناعتين،ج١، تح: د مفيد قمحه، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٩٨٩م، ص٣٩.

(١) قلعجي، محمد رواس، حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء،ج١، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٨م، ص٦٧.

(٢) ينظر الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م، وابن منظور، لسان العرب، (فصل).

جميع أجزائه، وما يحيط به، وفصل الشيء جعله فصولا أي قسمه، والأمر بينه، ومنه قوله تعالى: " قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾" (الأنعام:٩٧) (١).

قال أبو هلال العسكري في الفرق بين الشرح والتفصيل: "إن الشرح بيان المشروح وإخراجه من وجه الإشكال إلى التجلي والظهور، ولهذا لا يستعمل الشرح في القرآن، والتفصيل هو ذكر ما تضمنه الجملة على سبيل الإفراد.

ولهذا قال تعالى: "ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾" (هود:١)، ولم يقل شرحت، وفرق آخر أن التفصيل هو وصف آحاد الجنس وذكرها معا، وربما احتاج التفصيل إلى الشرح والبيان و الشيء لا يحتاج إلى نفسه (٢).

ويرى ابن مالك أن التفصيل: تبيين للأمور المجتمعة بلفظ واحد(٣)، وقد مثل له ابن الأثير في المثل السائر فقال: "التفصيل في قوله تعالى: "فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾" (الرحمن:٦٨)، فقد ذكر النخل والرمان مع أنه ذكرهما في ذكره للفاكهة(٤).

ثالثا: الأسلوبية:

الأسلوب: جاء في لسان العرب يقال: للسطر من النخيل أسلوب، و(الأسلوب) هو كل طريق ممتد و(الأسلوب) الطريق، والوجه، المذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء، ويجمع أساليب والأسلوب: الطريق تأخذ فيه، و(الأسلوب) بالضم الفن يقال: أخذ فلان في أساليب القول أي: في أفانين من القول(٥).

---

(٣) ينظر: المعجم الوسيط، (فصل).

(٤) العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبدالله بن سهل، الفروق اللغوية، ج١، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م، ص٢٩٨.

(١) جمال الدين عبد الله الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ج٣، دراسة وتح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط ، د. ت، ص٣٤١.

(٢) ينظر: ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٩٩٥م، ص٥٨.

(٣) ينظر: الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، (أسلوب)، والزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ط، ١٩٦٦م، (سلب).

والأسلوب هو اختيار الكاتب ما من شأنه أن يخرج بالعبارة من حالة الحياد اللغوي إلى خطاب متميز بنفسه(١)، وهو ما يشير إلى فرادة النص الأدبي، وخصوصية أسلوبه وارتباطه بصاحبه، وفردية هذا الشخص.

والتحليل الأسلوبي يهتم بقيم التميز الأسلوبية، ولأن الأسلوب هو القالب، فلابد أن يكون لكل شخص قالبه المعد وفقا لقوانين اللغة، وبهذا تكون الأسلوبية علما يهتم بدراسة الخصائص التي تخرج الخطاب عن وظيفته الإخبارية الإبلاغية، إلى وظيفته التأثيرية والجمالية٢ ().

وهي لا تتوانى عن تناول أي جزئية من مكونات النص، الذي يشكل من ثلاثة جوانب متواشجة ومتلاحمة الأول: الجانب الملفوظ في النص، والثاني: الجانب الإدراكي المفهوم من النص، والثالث: تركيب النص وبنيته التي تعمل على تلاقي جوانبه الملفوظة والمفهومة، وننطلق من هذه الجوانب لتحديد المكونات الأسلوبية٣ ().

وهذا ما أقصده بالأسلوبية في البحث: وهو المنهج الوصفي الذي يتناول دراسة النص القرآني على أساس تحليل الظواهر اللغوية الأسلوبية؛ لكشف الظواهر الجمالية فيه، وتحديد الميزات الأسلوبية التي يتميز بها النص القرآني عن غيره من النصوص الأخرى، والتي تقوم في دراستها لهذه القيم، وبيان فاعليتها في إثراء النص على مستويات ثلاثة، وهي(المستوى التركيبي، والمستوى اللفظي، والمستوى الصوتي).

المطلب الثاني: التفصيل بعد الاستيفاء وصلته بالبلاغة العربية

الاستيفاء بعد التفصيل أسلوب بلاغي يؤتى بالمعنى المستوفى أولا ثم يؤتى بما يبين ذلك المعنى المستوفى ويوضحه ويفصله سواء أكان ذلك برابط يربط جملة الاستيفاء بالتفصيل أم بدون رابط، ويدخل في هذا الأسلوب البلاغي موضوعات بلاغية عدة كالآتي:

اللف والنشر: يسميهما بعض البلاغيين الطي والنشر، وهو أحد فنون علم البديع من علم البلاغة، ويعني أن تذكر شيئين فصاعداً إما تفصيلاً؛ فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً؛ فتأتي

---

(٤) عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨٠م، ص١٤٥.

(٥) ينظر العبدلي، أمير فاضل سعد، في النقد الأدبي الحديث، مكتبة صلاح الدين الأيوبي، الحديدة، ط١، ٢٠١٥م، ص٢٦،٢٧ .

(١) عبابنة، سامي محمد، التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة في التراث النقدي البلاغي، عالم الكتب الحديث، إربد، عمان، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١٧.

بلفظ واحد يشتمل على متعدد وتفوض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق به من غير حاجة إلى أن تنص أنت على ذلك.

أو هو (بعبارة أخرى) ذكر متعدد مفصل أو مجمل، ثم ذكر ما لكلٍّ من آحاده بلا تعيين؛ اتكالاً على أن السامع يَرُدُّ إلى كلٍّ ما يليق به لوضوح الحال(١)، ويتعلق مع أسلوب التفصيل حين يذكر أولا الكلام مجملا ثم يقوم بنشره، كما في قوله تعالى:"وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ " (آل عمران:١٠٤).

فقد ذكر بيض الوجوه وسودها إجمالا ثم ذكر ما يناسب كل منهما فذكر ماييناسب اسوداد الوجوه وبين جزاءهم، كما ذكر ما يناسب بياض الوجوه وبين جزاءهم

كما يتداخل معه موضوع التكرار البلاغي، فالتفصيل في أحد أوجهه يأتي بتكرار الصيغة أو التركيب كما في قوله تعالى "نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾" (العلق:١٦).

فتكرار الصياغة في الآية الأولى، وتكرار التركيب في الآية الثانية تفصيل بعد استيفاء، فالتكرار مكون من مكوناته، وهو جزء منه

ويتداخل معه موضوع التقسيم؛ إذ أن من وجوه التفصيل التقسيم لما قبله، فالتقسيم مكون من مكونات التفصيل بعد الاستيفاء يقول الغزويني: التقسيم وهو ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين كقول أبي تمام:

وَمَا هُوَ إِلاَّ الْوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ ... تَمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مَائِلِ

فَهذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ ... وهذَا دَوَاءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جَاهِلِ (٢)

فجاء تعيين ما يتعلق بالقسم الأول(الوحي) بعبارة: "فهذا دواء الداء من كل عالم"، وجاء تعيين ما يتعلق بالقسم الثاني(حد مرهف) بعبارة: "وهذا دواء الداء من كل جاهل".

وقال السكاكي: هو أن تذكر شيئا ذا جزءين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك كقوله: أديبان في بلخ لا يأكلان ... إذا صحبا المرء غير الكبد

فهذا طويل كظل القناة ... وهذا قصير كظل الوتد (٣)

---

(١) ينظر: القزويني، سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٨م، ص٣٦٦.

(١) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ج١، ص٢٣٤، والأبيات الشعرية لأبي تمام، حبيب بن أوس، ديوانه الشعري، ج٢، تح: راجي الاسمر، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م، ص٤٢.

(٢) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، ج١، تح: نعيم زرزو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص٤٢٥.

وعرفه زكي الدين بن أبي الأصبع بقوله: " التقسيم عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الي هو آخذ فيه"(١)

ومنه قوله تعالى:"وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩" (العنكبوت: ٣٩).

ومن الموضوعات البلاغية التي يقوم عليها أيضا موضوع التفريق بعد الجمع والتقسيم بعد الجمع؛ إذ يكون الجمع أولا ثم يؤتى بالتفريق للمجموع والتقسيم له وهو كما عرفه علماء البلاغة(٢)

وكذلك من المواضيع البلاغية التي هي من مكوناته (التعديد) الاصطلاحي؛ إذ التعديد اصطلاحا هو" إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد"(٣)، فهو ألفاظ معجمية عددت لشيء واحد، فهو جمع للألفاظ، وتكثير لها، وزيادة بها، وذكر لنظائرها، واشتراك فيما بينها في المعاني أو في الهيئات في سياق جامع لكل ذلك.

قال السيوطي: "هو إيقاع الألفاظ المفردة على سياق واحد وأكثر ما يوجد في الصفات كقوله هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر "(٤)

وقد نظروا إليه على أنه من عناصر البديع الجمالية المعنوية، ومنه قوله تعالى: "أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣" (البقرة:١٣٣).

وهو أيضا إطناب لكنه إطناب مقنن يقوم على تفصيل ما أجمل قبله، فهو إيضاح بعد إبهام يأخذ بالبدل وعطف البيان ويزيد عليه

ومن ما تم مناقشته يتضح لنا أن التفصيل بعد الاستيفاء أسلوب من الأساليب البلاغة العربية التي ارتبطت ارتباطا مباشرا بجملة من فنونها البديعية بألوانها المختلفة.

---

(٣) المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تح حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١٩٩٥،١م، ص٦٥.

(٤) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ج١، ص٤٢٦.

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، ج٣، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٧٥.

(٢) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، تح: محمود القيسة، ومحمد الأتاسي، مؤسسة النداء أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م.، ص٢٤٢.

المبحث الثاني: موضوع البحث

يقوم البحث بدراسة الآية القرآنية دراسة أسلوبية يكشف عن بيانها المعجز، في قوله تعالى:"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾" (البقرة: ٧٤).

نجد في الآية ظاهرة التفصيل للمعنى الذي استوفى في قوله تعالى: " ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ " فالمعنى مستوف تماما في الآية؛ إذ شبه قلوب بني إسرائيل بالحجارة أو هي أشد منها، لكنه لم يقف عند هذا الاستيفاء بل فصل فيه في قوله: "وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ "

وسيقوم البحث بدراسة ظاهرة التفصيل بعد الاستيفاء في الآية كما يأتي:

أولا: الفكرة الموجهة للظاهرة الوصفية في الآية وهي: بيان قسوة قلوب بني إسرائيل.

ثانيا: عناصر تشكيل الظاهرة:

تتشكل عناصر تكوين الظاهرة في الآية؛ لتعمق الفكرة الموجهة لها، وهي (قسوة قلوب بني إسرائيل) من (القلوب، الحجارة، الماء)، فقد بدأت الآية بذكر قسوة قلوبهم بعد رؤية هذه المعجزة الكبرى التي كان من المفترض أن تزيد في إيمانهم وانصياعهم لنبيهم موسى (عليه السلام).

ولكن ما حدث هو عكس ذلك تماما من التكذيب والضلال، فقست قلوبهم وصارت بتلك القسوة التي حكت عنها الآيات " فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً "، فشبه قلوبهم بالحجارة ثم ترقى في التشبيه مستخدما أسلوب العطف بالأداة(أو) التي تفيد الإضراب بمعنى (بل).

أي: انتقل التعبير القرآني من خلاله إلى المعنى الأكثر قوة ودلالة؛ فحقق بذلك نوعا من الترقي الدلالي؛ إذ بدأ بذكر الحجر أولا الذي يضرب به المثل في القساوة والصلابة منتقلا إلى ما هو أشد

منه صلابة وقوة ثم برهن على أن الحجارة أقل قسوة من قلوبهم بأسلوب مفصل في مستويات ثلاثة:"

الأول: " وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ "

الثاني: " وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ "

الثالث: " وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ "

إذ جاء التفصيل الترتيبي من الأكثر ابتداء من تفجر الانهار من الحجارة ثم في حالة أخرى تشقق الصخر وخروج الماء منه، ثم هبوط الحجارة من خشية الله في المستوى الثالث؛ ليبين أن ما كانوا يتوقعون أنه أقوى صلابة منهم صار أقل من قسوة قلوبهم التي لا تلين ولا تعرف الرحمة .

فالحجارة تتفجر منها الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله بعكس قلوبهم، وهذا النوع من الخطاب الذي يتخذ من الرقي والتدرج في الدلالة وسيلة لاتصال المعنى المطلوب؛ ليكون له الأثر الكبير في المتلقي، وهو أفضل من طريقة عرض المعنى الأكثر والأقوى في الدلالة مباشرة من غير تدرج، وابتداء بالمعنى الأقل شدة، وأخف وطأة، كما أنه يتيح للمتلقي نوعا من المقارنة بين المعنيين، والتالي وصوله وتلمسه للمعنى الأقوى والأشد (١).

وختمت الآية بالتهديد والوعيد ببيان اطلاع الله (سبحانه وتعالى) على أعمالهم وعدم غفلته عنهم بيان شدة مراقبتهم في تعبير قرآني فريد.

وسيقوم البحث بتحليل الظاهرة في مستويات ثلاثة وهي(المستوى التركيبي، والمستوى اللفظي، والمستوى الصوتي) كالآتي:

أولا : المستوى التركيبي

يدرس البحث في هذا المستوى التراكيب اللغوية التي لها أثر في السياق وتوجيهه؛ لتعميق فكرته الموجهة ومنها:

أسلوب التضاد بين قلوبهم والحجارة؛ فقلوبهم لا تلين ولا يخرج منها إلا الحقد والكراهية، فقد صارت مصدرا للموت وعدم النفع قابلها بالحجارة التي تلين، فمنها ما يتفجر منه الأنهار فتروي الأرض، ومنها ما يشقق فيتخرج منه الماء بكل سهولة ويسر؛ ليشرب منه الناس، وتخضر الأرض بسببه، ومنها ما يهبط من خشية الله.

---

(١) الزيادي، تراث حاكم، الاستدراك والإضراب في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة القادسية، العدد الحادي عشر بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١م، ص٧٠.

وكما نعلم أن الماء مصدر الحياة وبدونه تنعدم، فما كانوا يرونه أنه مصدر للقسوة والصلابة صار مصدرا للحياة والعيش بعكس قلوبهم، فبين قلوبهم وبين الحجارة تضاد كبير؛ فقلوبهم قاسية وصلبة متحجرة لا نفع منها ولا فائدة فيها، بعكس الحجارة التي تلين وتخشع وتصبح مصدرا للحياة ومنبعا للعيش الرغيد.

وجاء التعبير القرآني ليعبر عن هذه القسوة في قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم)، وهي استعارة مكنية إذا استعار القرآن لفظ (قست) للقلوب، والقاسي هو اليابس المتصلب، كما قال عنهم في موضع آخر "فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً " (المائدة:١٣)(١)، أي: يابسة متصلبة؛ ليبين حال قلوبهم في عدم الاعتبار والاتعاظ(٢).

والتفت التعبير القرآني فجاء بـ (قلوبكم) ولم يقل (قلوبهم) مع أنه يحكي حادثة وقعت في الماضي، فهو يستحضرهم - في الآية - ويتحدث إليهم كأنهم موجودون حال الخطاب؛ ليقيم عليهم الحجة، ويفضحهم، ويكشف غلظة قلوبهم، وقسوة طباعهم؛ وليبينهم للناس تحذيرا لهم، وتنفيرا منهم مع تبكيتهم، فهم أي: اليهود توارثوا هذه الصفات جيلا بعد جيل، فاليهود الموجودون في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) هم اليهود في زمن النبي موسى(عليه السلام) في صفة القسوة وعدم التأثير بالمعجزات التي رأوها .

واختار القلوب؛ كونها محل نظر الله (سبحانه وتعالى)، ولأن القلب مركز التحكم في جميع الجوارح الأخرى، ومنه تصدر التعليمات والأوامر للجوارح، وما تفعله هذه الجوارح ليس سوى ترجمة لما في القلب، وليبين خبثهم المتأصل، ومكرهم المتجذر في أعماقهم.

وشبه قلوبهم في قسوتها بالحجارة" فهي كالحجارة " فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً "، وهو تشبيه مرسل؛ إذ ذكر المشبه والمشبه وأداة التشبيه، وجامع القساوة في كل منهما، لكن قساوة قلوبهم قساوة معنوية تجاه الحق والخير والفضيلة، أما الحجارة فقساوتها مادية(٣)

فقلوبهم في نبوها عن الحق، وتجافيها مع أحكامه، كالحجارة القاسية التي يشاهدونها أمامهم، وهي ناطقة بلسان الحال صلابة وجمودا؛ ليفيد أن هذه القلوب لا تثمر الخير أبدا، فهي ليست قابلة لنفاذ الخير إليها.

---

(١) الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م، ص٣٩.

(٢) ينظر، الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهيب اللغة، ج٩، تح: محمد عوض مرحب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص١٨٠.

(١) الميداني، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٦م،٥٦٤.

يقول ابن عاشور: " فهي كالحجارة تشبيه فرع بالفاء؛ لإرادة ظهور التشبيه بعد حكاية الحالة المعبر عنها بـ(قست)؛ لأن القسوة هي وجه الشبه، ولأن أشهر الأشياء في هذا الوصف هو الحجز، فإذا ذكرت القسوة فقد تهيأ التشبيه بالحجر، ولذا عطف بالفاء أي إذا علمت أنها قاسية فشبهها بالحجارة كقول النابغة يصف الحجيج:

عليهن شعثٌ عامدون لربهمْ ... فهن كأطرافِ الحني خواضعُ

وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر؛ لأنها محسوسة فلذلك شبه بها، وهذا الأسلوب يسمى عندي تهيئة التشبيه وهو من محاسنه(١)

ولم يقل كالحديد مع أنه أصلب من الحجارة؛ لأنه يلين بالنار لكل أحد، وقد لان لنبي الله داود (عليه السّلام) بغيرها، والحجارة غير قابلة للتليين، وقد تصير ترابا بالحرق لكنها لا تلين أبدا(٢)، وـ أيضاـ لما في الحديد من المنافع .

وعبر بالجملة الاسمية " فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ " ؛ لدلالة ثبات صفة القسوة عليهم، وعدم مفارقتها لهم؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت، واختار التعبير القرآني الحجارة؛ لتتناسب مع عقلية المجتمع السائدة آنذاك، التي كانت تنظر إلى الحجارة وتتخذ منها رمزا للصلابة القوة والشدة.

وقوله "من بعد ذلك" كلمة حددت مبدأ تاريخ القسوة، ولم تحدد نهايته كأنها بذلك وضعت عليه طابع الاستمرار.

وتركته يتخطى العصور والأجيال في خيال السامع حتى يظن أن الحديث قد أشرف به على العصر الحاضر ثم لم يلبث هذا الظن أن ازداد قوة بصيغة الجملة الاسمية في قوله فهي كالحجارة دون أن يقول فكانت كالحجارة.

ثم انظر كيف كان انتهاؤه إلى وصف قلوبهم بهذا الوصف؛ توطئة لتغيير الأسلوب فيهم فإن من يبلغ قلبه هذا الحد من القسوة التي لا لين فيها يصبح استمرار الخطاب معه نابيا عن الحكمة، ويصير جديرا بصرف الخطاب عنه إلى غيره ممن له قلب سليم وهكذا(٣).

كما نلحظ أدوات الربط بأسلوب العطف، وهو من الظواهر النصية التي ركزت عليها اللسانيات؛ فبتوافرها يبدو النص بنية كلية كبرى، والربط" قرينة لفظية تدل على اتصال أحد المترابطين بالآخر"(١).

---

(٢) ملا حويش آل غازي، بيان المعاني، ج٥، مطبعة الترقي، دمشق، ط١، ١٣٨٢ه، ص٥٣.

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٤٤، والبيت الشعري للنابغة، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م، ص٥٦.

(١) دراز، محمد عبدالله، النبأ العظيم، ج١، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٥م، ص١٨٠.

وهذه الوحدة المترابطة بجملها المتتابعة، وما بينها من علاقات تبرز بصورة جلية مع ادوات الربط أو علاقاته التي تتعدد وتتنوع بحسب السياق الذي ترد فيه؛ إذ تكرر عدة مرات في الآية، وسنبين أبرزها ودوره الفاعل في تكوين الظاهرة

تكرر هذا الأسلوب عدة مرات في الظاهرة في قوله تعالى(ثم قست قلوبكم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة)، ففي التعبير بأداة العطف(ثم) التي تفيد العطف مع الترتيب والتراخي بيان أن قسوة قلوبهم إنما جاءت بعد معرفة الحقيقة ووضوحها؛ إذ جاءت الآية بعد قصة البقرة التي ذبحها بنو إسرائيل وكانوا يجادلون نبيهم موسى(عليه السلام) بغية التهرب من ذبحها وذبحوها وما كادوا يفعلون، كما يدل على أن الزمن والبيئة أثرت فيهم فصاروا بهذه القسوة التي ذكرتها الآية.

وجاء العطف بحرف الفاء(فهي كالحجارة)؛ ليبن أن قلوبهم بعد معرفتها للحقيقة تحولت مباشرة كالحجارة الصلدة؛ كون الفاء تفيد العطف مع التعقيب، فالمعطوف يتبع المعطوف عليه مباشرة ، كما في قوله(تعالى): "أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾" (عبس: ٢١)،. فالقبر بعد الموت مباشرة.

وأما(أو) في قوله تعالى(أو أشد قسوة)، فهي بمعنى (بل) التي تفيد الإضراب، فقد جاء بها بعد ذكر الحجارة؛ لينتقل بها إلى الشيء الأكثر قسوة وشدة وهي قلوبهم، وذلك لزيادة المبالغة والتنبيه على أحوالهم وأوضاعهم، ومشيرا في الوقت نفسه أنكم إذا كنتم تنظرون إلى الحجارة على أنها رمز لكمال الشدة والصلابة.

فإن قلوبكم التي تملكونها هي أكثر صلابة وشدة، وقسوة، وتعنتا وعلل ذلك بقوله تعالى:"وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ البقرة: ٧٤

" ونجد أسلوب التفصيل مع الترتيب في ذكر مستويات الحجارة ومنافعها في قوله:

الأول: "وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ"

الثاني: " وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ"

الثالث: " وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ"

(٢) تمام حسان عمر ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦م، ص٢١٣.

إذ نلحظ في هذا التفصيل الترتيب والتدرج؛ إذ بدأ بالأقوى والأكثر في المستوى الأول، وهو تفجر الأنهار ثم الأقل منه وهو التشقق وخروج الماء ثم الهبوط للحجارة من أعلى إلى أسفل من خشية الله، ويمكن دراسة المستويات الثلاثة والإشارة إليها كما في الآتي:

وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ ← مِنۡهُ ← ٱلۡأَنۡهَٰرُ

وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ ← مِنۡهُ ← ٱلۡمَآءُۚ.

وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ ← مِنۡ ← خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ.

إذ نلحظ في التكرار التأكيد على الحجارة إما باسمها أو بالضمير العائد عليها(بإن) في (وإن من الحجارة، وإن منها، وإن منها)؛ ليؤكد لنا أن الحجارة الصلبة ألين من قلوبهم؛ فالحجارة تتفجر منها الأنهار، وتتشقق فيخرج منها الماء، وتهبط من خشية الله بعكس قلوبهم.

فمصدر القسوة والصلابة يصبح مصدرا للحياة؛ كونها الماء أساسها، وأما قلوبهم فهي لا تعرف الحياة؛ كونها في غلظتها، وقساوة كفرها تعيش حالة واحدة من التصلب والعناد، لا تسمح بأن تلين ولا تقبل الخير، فهي أصل الشرور وما يصدر عنها غير الموت، فلم تعد صالحة للحياة والخير.

وفي التعبيرين الأول والثاني ذكر" منه" في قوله: "يتفجر منه، يخرج منه"، ولم يذكرها في الثالثة، فلم يقل: يهبط منه، وإنما جاء التعبير بـ "من" الدالة على السببية أي: بسبب خشية الله؛ لأن الهبوط خاص بالحجارة التي تنزل من أعلى إلى أسفل، وأما التعبيران الأوليان، فخاصان بصفتي الانفجار والتشقق، وليس بما يخرج منها وينبثق عنها.

والتناسب بين الألفاظ ملحوظ في الظاهرة؛ إذ أن الانفجار بالماء ناسبه ذكر الأنهار؛ لأن الانفجار قوة الصوت الذي يحدثه الماء بسبب تدفقه وخروجه، كما قال تعالى: أَأَ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً"(البقرة:٦٠) أي: انبعثت وتدفقت، والنهر هو الماء المتدفق الجاري(١).، فتناسب اللفظان ومعانيهما مع بعضهما.

والتشقق ناسبه التعبير بالخروج؛ كون التشقق معناه التصدع(٢)، وهو الذي لا يجري الماء بسببه بقوة، فكان التعبير المناسب له الخروج، وناسب لفظ التشقق والخروج التعبير بلفظ الماء، وهو لفظ يدل على الانسيابية والسهولة في الجريان وسلاسته.

(١) ابن منظور، لسان العرب، المعجم الوسيط (فجر، نهر).

(٢) ينظر: المرجع السابق، (شقق، هبط).

وفي القسم الثالث اختار التعبير القرآني لفظ (يهبط)، والهبوط من معانيه النزول والاستسلام (١)، والخضوع قابله بخشية الله المشعرة بالخضوع والاستسلام، والانقياد له سبحانه وتعالى، فاختار التعبير القرآني لكل لفظ ما يناسبه، وهذه الدقة اللامتناهية في اختيار الألفاظ في نسق محكم وتناسب معجز تكشف لنا إعجازه البديع.

ونلحظ التقديم والتأخير في(يتفجر منه الأنهار)، (يخرج منه الماء)

إذ تقدم الجار والمجرور على الفاعل والجار والمجرور حقه التأخير (يتفجر الأنهار منه)،(يخرج الماء منه)، وعلة هذا التقديم هم الاهتمام بالحجارة، والتأكيد عليها في بيان ما يخرج منها أي: رغم صلابتها إلا أنها تلين فتتفجر منها الأنهار، وتتشقق فيخرج منها الماء في مقابلة حال قلوبهم القاسية.

وتختتم الظاهرة بأسلوب النفي المعطوف بحرف الواو، الدال على العطف المطلق في قوله تعالى " وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٩﴾"، وهو ما يوحي بعدم غفلة الله عنهم وشدة مراقبته لهم، وجاء النفي بالأداة (ما)؛ لتدل على النفي الشديد، وتأكد النفي بحرف الباء مع اسم الفاعل(بغافل)؛ لتؤكد بقوة عدم غفلة الله عنهم وشدة مراقبته لهم واطلاعه على أعمالهم، وهي أبلغ من القول (ما الله غافلا).

ففي التعبيرين اختلاف واضح، وتباين في المعنى، فلو قلت: (ما محمد حاضرا) نفيت الحضور عن محمد، لكنك حين تقول: (ما محمد بحاضر) أكدت بقوة عدم حضوره، وجاء باسم الفاعل منونا تأكيدا ثالثا على عدم غفلة الله عن أعمالهم الشريرة التي تصدر عن نفوسهم الخبيثة؛ تهديدا ووعيد وتبكيتا.

ثانيا: المستوى اللفظي

يدرس البحث في هذا المستوى اللفظ ودلالته على المعنى، وعلاقته بالسياق الذي وجد فيه كالآتي:

إذ نجد في الظاهرة ألفاظا تناسقت مع معانيها التي وضعت لها في الآية فلفظ (قسوة) في قوله تعالى" ثم قست" تحمل معنى الصلابة والشدة والغلظة في معناها المعجمي؛ فتأْويل القَسْوة في القلب ذَهاب اللِّين والرحمة والخشوع منه(٢)، ناسب هذا المعنى غلظة قلوب بني إسرائيل وقساوتها، والتعبير وإن كان بالماضي إلا أنه يمتد إلى كل أزمنة بني إسرائيل.

---

(٣) الجوهري، الصحاح ، ج٢،(هبط).

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة (قسا).

وجاء التعبير بلفظ(أشد) الموحي بالمبالغة في الشدة، وهو ما تناسب مع قلوبهم الموصوفة بالتصلب وعدم الرحمة واللين والإذعان للحق، كما يدل على ثبات هذه الصفة لقلوبهم، وملازمتها لها.

وجاء التعبير بلفظ(يتفجر)، وهو ما يتناسب واقعيا مع الماء حين يندفع بقوة أثناء خروجه من الصخر بفعل الضغط الحاصل له، وعبر بالفعل(يشقق)، والتشقق معناه التصدع(١)، وقد ناسب هذا اللفظ التصدع الحاصل في الصخر حين خروج الماء منه في إحدى حالاته المذكورة، وجاء الوصف بالفعل(يهبط) في تعبيره عن النوع الثالث من أنواع الحجارة؛ ليتناسب مع الهبوط في الواقع للأحجار حين نزولها في حركتها من الأعلى للأسفل.

وناسب التكرار توالي الأفعال بالجملة الفعلية(يتفجر، يخرج، يشقق، يهبط)؛ كون الجملة الفعلية تدل على التجدد والاستمرار، وهي ظواهر كونية تحدث باستمرار وتجدد، وقد صورت لنا هذه الظواهر الكونية أحسن تصوير وعبرت عنها بألفاظ دقيقة.

وجاءت (الأنهار) لفظ جمع؛ لتتناسب مع الكثرة في الواقع، وعبر باسم الفاعل في قوله تعالى" وما الله بغافل عما تعملون"؛ لينفي بقوة غفلة الله عنهم، ويشعرهم بالمراقبة الشديدة من الله على ما يقومون به من أعمال خبيثة تصدر عنهم وتتجدد وتستمر؛ ولذلك عبر عنها بالمضارع (تعملون).

ولما " أفهم أنه ينشأ عن قسوة القلوب أفعال فاسدة وأعمال قبيحة، من مخالفة اللّه تعالى، ومعاندة رسله، فأعقب ذلك بتهديدهم بأن اللّه تعالى ليس بغافل عن أعمالهم، بل هو تعالى يحصيها عليهم، وإذا لم يغفل عنها كان مجازيا عليها" (٢)..

ثالثا: المستوى الصوتي

يدرس هذا المستوى الصوت وعلاقته بالمعنى في السياق الذي وجد فيه

ففي الآية الكريمة نلحظ بروز أصوات لحركة معينة كا(لقاف) في (قست، قلوبكم، وقسوة، ويشقق)، وهو حرف شديد مفخم، يخرج من أقصى الحنك(٣)، ويتناسب مع القوة التي ناسبت قلوبهم وغلظتها، وأما في يشقق فقد أعيد الحرف مرتين(قق) يتناسب مع صوت التشقق الذي يصدره الصخر حين تحدث له عملية التشقق بسبب الماء وضغطه.

وحرف(الشين، والدال) في (أشد، ويشقق) الذي هو أحد حروف التفشي، وهو اشغال الصوت مساحة أعرض في اللسان مما يؤدي إلى انتشار في الصوت(٤)، ودلالته الانتشار والقوة ناسب الشدة في

---

(٢) ينظر: المرجع السابق(شقق).

(١) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط،ج١، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠ه، ص٤٣١.

(٢) ينظر: الخطيب، عبد الكريم، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) عبد المنعم الناصر، سيبويه(دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربية من خلال نصوص كتاب سيبويه)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د. ت، ص٢١٠.

قلوبهم واشتهارهم بها، كما ناسب انتشار الماء وخروجه وتسربه من الصخر حين تحدث له عملية التشقق، وتضعيف الدال في (أشد) ناسب شدة القسوة التي في قلوبهم.

ونجد أن حرف الجيم كما في (الحجارة، يتفجر، يخرج) ناسب المعنى؛ فهو حرف صامت مركب ومن أوضح الصوامت وأصعبها نطقا، يتناسب مع صلابة الحجارة وبروزها، ووضوحها للعيان، كما ناسب تفجر الماء ووضوحه وشدة خروجه.

كما نلحظ التناسب مع المعنى بين الظاهرة والحكم التجويدي، ففي قوله تعالى: " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك" نلحظ الإدغام المتماثل في التقاء الميمين في (قلوبكم من)، كذلك المعنى فيه إدغام؛ فقلوبهم امتزجت بها صفة القسوة والشدة وخالطتها فصارت كأنها شيء واحد.

ونلحظ الإقلاب في قوله(من بعد) في التقاء الميم الساكنة بالباء ناسب واقعه وانقلاب حالهم بعد رؤيتهم الحقيقة إلى التكذيب والقسوة يقول السمعاني: (من بعد ذلك) من بعد ما ظهر لكم من تلك الآيات(١).

والإظهار في (يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق، وإن منها لما يهبط) في التقاء النون الساكنة مع الهاء في حالة التفجر، وفي حالة التشقق، وفي حالة الهبوط؛ لأنها ظواهر مرئية للعين تشاهدها ونلحظها؛ فالتعبير المناسب عنها لابد أن يكون فيه ما يحمل على الظهور، فعبر عن كل شيء بما يناسبه، وهذا من أسلوبه المتقن، والمعجز الفريد.

والإظهار من التنوين الذي جاء بعد حرف العين في (بغافل) يتناسب مع المعنى الذي هو عدم غفلة الله عنهم، واطلاعه على أعمالهم، وظهور حالهم وبيان واقعهم المخزي، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، والمد بالواو في الفعل المضارع (يعملون) يتناسب مع تمدد أعمالهم الخبيثة ومكرهم وكثرتها(٢).

ونلحظ الغنة في (إن من الحجارة، وإن منها، وإن منها)هذا التأكيد في بيان أنواع الحجارة وتفصيله تأكيدا على أن الحجارة ألين من قلوبهم؛ فمنها تخرج الحياة، وتنبعث منها الأنهار، والماء؛ لتكون سببا في الحياة بعكس قلوبهم المتحجرة والصلدة.

مصادر البحث ومراجعه :

١. إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، المعجم الوسيط، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط٥، ٢٠٠٤م.

(١) السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، تفسير القرآن،ج١، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧م، ص٩٥.

(٢) ينظر: الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ج٣، دار إحياء التراث العربي، ط١، ص٥٥٨.

٢. ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج١، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، د. ط، ١٩٩٥م.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.

٤. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه،ج٥، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٨٧م.

٥. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، دار(صادر)، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٦. أبو تمام، حبيب بن أوس، ديوانه الشعري، ج٢، تح: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٩٤م، ص٤٢.

٧. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط،ج١، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠ه.

٨. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ج٩، تح: محمد عوض مرحب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٩. تمام حسان عمر ، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٦م.

١٠. جمال الدين عبد الله الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ج٣، دراسة وتح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط ، د. ت .

١١. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٢، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

١٢. الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، (أسلوب)، والزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة ، بيروت، د. ط، ١٩٦٦م.

١٣. الخطيب، عبد الكريم، إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٩٧٤،١م.

١٤. دراز، محمد عبدالله، النبأ العظيم، ج١، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٥م.

١٥. الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر، التفسير الكبير(مفتاح الغيب)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١ه .

١٦. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبدالله، البرهان في علوم القرآن، ج٣، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص٤٧٥.

١٧. الزيادي، تراث حاكم، الاستدراك والإضراب في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة القادسية، العدد الحادي عشر بتاريخ ٢٠٠٨/٣/١م.(في النت).

١٨. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، تفسير القرآن،ج١، تح: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٩٩٧.

١٩. السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، تح: محمود القيسة، ومحمد الأتاسي، مؤسسة النداء أبو ظبي، ط١، ٢٠٠٣م.، ص٢٤٢.

٢٠. الشنقيطي، محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

٢١. عبابنة، سامي محمد، التفكير الأسلوبي رؤية معاصرة في التراث النقدي البلاغي، عالم الكتب الحديث، إربد، عمان، ط١، ٢٠٠٧م.

٢٢. الناصر، عبد المنعم، سيبويه(دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربية من خلال نصوص كتاب سيبويه)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د. ت.

٢٣. العبدلي، أمير فاضل سعد، في النقد الأدبي الحديث، مكتبة صلاح الدين الأيوبي، الحديدة، ط١ ،٢٠١٥م.

٢٤. عدنان بن ذريل، اللغة والأسلوب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٨٠م.

٢٥. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل، الصناعتين،ج١، تح: د مفيد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ط، ١٩٨٩م.

٢٦. العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبدالله بن سهل، الفروق اللغوية، ج١، تح: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٥، ١٩٨٣م، ص٢٩٨.

٢٧. القزويني، سعد الدين بن عمر، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٨م، ص٣٦٦.

٢٨. قلعجي، محمد رواس، حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء،ج١، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٨م.

٢٩. المصري، ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، تح حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط١٩٩٥،١م، ص٦٥.

٣٠. آل غازي، ملا حويش، بيان المعاني، ج٥، مطبعة الترقي، دمشق، ط٢ ،١٣٨٢ه.

٣١. الميداني، عبد الرحمن حسن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط١، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

٣٢. النابغة، ديوان النابغة الذبياني، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.